السُّنَنُ الإِلَهِيَّةُ

فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

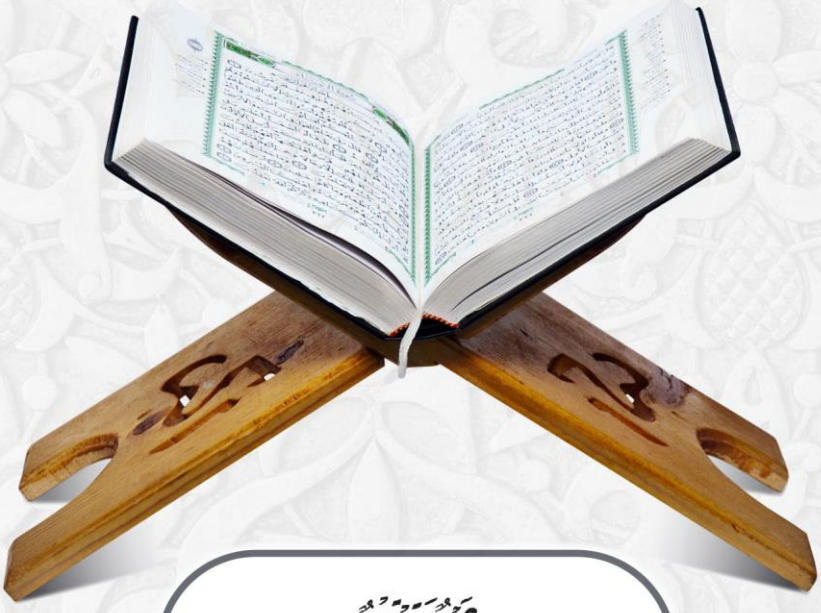

جَمْعٌ وَتَرْتِيبٌ

مِنْ خُطَبِ وَمُحَاضَرَاتِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ رَسْلَانَ

حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

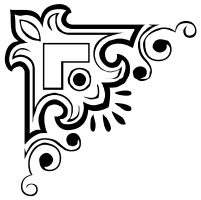

السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَغْيِيرَ

فَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣].

«﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَغْيِيرًا، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾: وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ تَبْدِيلًا، لَنْ يُغَيِّرَ ذَلِكَ وَلَا يُبَدِّلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا مَرَدَّ لِقَضَائِهِ»(١).

إِنَّ اللهَ ﷻ أَقَامَ الْكَوْنَ عَلَى سُنَنٍ وَقَوَانِينَ ثَابِتَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ، وَالْمُتَأَمِّلُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُهُ حَافِلًا بِالْحَدِيثِ عَنِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَضْبِطُ حَرَكَةَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي تَكَامُلٍ وَانْسِجَامٍ دُونَ خَلَلٍ أَوِ اضْطِرَابٍ، حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧].

«وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا عَمَّا جَرَتْ بِهِ»(٢).

وَتَتَمَيَّزُ السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ بِالْعُمُومِ وَالشُّمُولِ؛ فَهِيَ تَنْطَبِقُ عَلَى الْجَمِيعِ دُونَ تَمْيِيزٍ أَوِ اسْتِثْنَاءٍ.

❀❀❀

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٨٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ٥١٢).

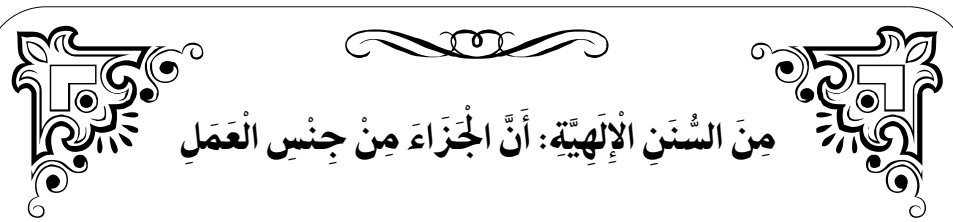

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

لَقَدْ جَعَلَ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ- الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

«مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَهَذَا شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْعَامِلِينَ؛ لِأَنَّ السُّوءَ شَامِلٌ لِأَيِّ ذَنْبٍ كَانَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَكَبَائِرِهَا، وَشَامِلٌ -أَيْضًا- لِكُلِّ جَزَاءٍ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، دُنْيَوِيٍّ أَوْ أُخْرَوِيٍّ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ دَرَجَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، فَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ كُلُّهُ سُوءًا، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِرًا؛ فَإِذَا مَاتَ مِنْ دُونِ تَوْبَةٍ جُوزِيَ بِالْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا، وَهُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ، وَإِنَّمَا يَصْدُرُ مِنْهُ أَحْيَانًا بَعْضُ الذُّنُوبِ الصِّغَارِ؛ فَمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْأَذَىٰ وَبَعْضِ الْآلَامِ فِي بَدَنِهِ أَوْ قَلْبِهِ أَوْ حَبِيبِهِ أَوْ مَالِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّهَا مُكَفِّرَاتٌ لِلذُّنُوبِ، وَهِيَ مِمَّا يُجْزَىٰ بِهِ عَلَىٰ عَمَلِهِ، قَيَّضَهَا اللهُ لُطْفًا بِعِبَادِهِ، وَبَيْنَ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ مَرَاتِبُ كَثِيرَةٌ.

وَهَذَا الْجَزَاءُ عَلَىٰ عَمَلِ السُّوءِ الْعَامِّ مَخْصُوصٌ فِي غَيْرِ التَّائِبِينَ؛ فَإِنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ النُّصُوصُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ لِإِزَالَةِ بَعْضِ مَا لَعَلَّهُ يُتَوَهَّمُ أَنَّ مَنِ اسْتَحَقَّ الْمُجَازَاةَ عَلَىٰ عَمَلِهِ قَدْ يَكُونُ لَهُ وَلِيٌّ أَوْ نَاصِرٌ أَوْ شَافِعٌ يَدْفَعُ عَنْهُ مَا اسْتَحَقَّهُ، فَأَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- بِانْتِفَاءِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُ وَلِيٌّ يُحَصِّلُ لَهُ الْمَطْلُوبَ، وَلَا نَصِيرٌ يَدْفَعُ عَنْهُ الْمَرْهُوبَ إِلَّا رَبُّهُ وَمَلِيكُهُ.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: دَخَلَ فِي ذَلِكَ سَائِرُ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَدَخَلَ -أَيْضًا- كُلُّ عَامِلٍ مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ؛ وَلِهَذَا قَالَ: **﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾**، **﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾**: وَهَذَا شَرْطٌ لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ، لَا تَكُونُ صَالِحَةً، وَلَا تُقْبَلُ، وَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ، وَلَا يَنْدَفِعُ بِهَا الْعِقَابُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ؛ فَالْأَعْمَالُ بِدُونِ الْإِيمَانِ كَأَغْصَانِ شَجَرَةٍ قُطِعَ أَصْلُهَا، وَكَبِنَاءٍ بُنِيَ عَلَىٰ مَوْجِ الْمَاءِ، فَالْإِيمَانُ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي يُبْنَىٰ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَهَذَا الْقَيْدُ يَنْبَغِي التَّفَطُّنُ لَهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ أُطْلِقَ، فَإِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِهِ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَيِ: الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ **﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾** الْمُشْتَمِلَةَ عَلَىٰ مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ **﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾** أَيْ: لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا مِمَّا عَمِلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ، بَلْ يَجِدُونَهُ كَامِلًا مُوَفَّرًا، مُضَاعَفًا أَضْعَافًا كَثِيرَةً»[1].

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٢٢٢-٢٢٣).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

«أَمَرَ -تَعَالَىٰ- بِذِكْرِهِ، وَوَعَدَ عَلَيْهِ أَفْضَلَ جَزَاءٍ؛ وَهُوَ ذِكْرُهُ لِمَنْ ذَكَرَهُ، كَمَا قَالَ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»(١).

وَذِكْرُ اللهِ -تَعَالَىٰ- أَفْضَلُهُ مَا تَوَاطَأَ عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الَّذِي يُثْمِرُ مَعْرِفَةَ اللهِ، وَمَحَبَّتَهُ، وَكَثْرَةَ ثَوَابِهِ، وَالذِّكْرُ هُوَ رَأْسُ الشُّكْرِ؛ فَلِهَذَا أَمَرَ بِهِ خُصُوصًا»(٢).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ(٣)، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ كُرْبَةِ الدُّنْيَا وَكُرْبَةِ الْآخِرَةِ، فَهَذَا عَطَاءٌ مِنْ صَاحِبِ الْعَطَاءِ وَالْفَضْلِ: «**فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) «**تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ**» (ص: ٧٠).

(٣) قَوله: «**لَا يُسلمهُ**»، أَي: لَا يتْركهُ مَعَ مَا يُؤْذِيه، بل ينصره وَيدْفَع عَنهُ، قاله ابن الجوزي في «**كشف المشكل**»: ٢/ ٤٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في «**الصحيح**»: ٥/ ٩٧، رقم (٢٤٤٢)، وفي: ١٢/ ٣٢٣، رقم (٦٩٥١)، ومسلم في «**الصحيح**»: ٤/ ١٩٩٦، رقم (٢٥٨٠).

=

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَزَالُ اللهُ فِي حَاجَةِ الْعَبْدِ مَا دَامَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ**»(١). (*).

وَيَقُولُ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**»(٣).

❀❀❀

=

والحديث أيضا في «**صحيح مسلم**»: ٤/ ١٩٨٦، رقم (٢٥٦٤)، من رواية: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، بلفظ: «**لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَىٰ هَاهُنَا** -وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**».

(١) أخرجه أبو القاسم البغوي في «**حديث مصعب الزبيري**»: ص٧٣، رقم (٩٠)، وأبو يعلىٰ كما في «**المطالب العالية**» لابن حجر: ٥/ ٧١٥، رقم (٩٨٣)، والمحاملي في «**الأمالي**» رواية ابن مهدي الفارسي: ص١٧٣، رقم (٣٣٢)، والطبراني في «**المعجم الكبير**»: ٥/ ١١٨، رقم (٤٨٠١).

والحديث صححه لغيره الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**»: ٢/ ٧٠٧، رقم (٢٦١٩)، وقد تقدم نحوه في «**الصحيحين**»، من رواية ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «...، **وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ**،...».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ دَرْس: «السَّعْيُ فِي قَضَاءِ حَاجَةِ الْآخَرِينَ».

(٣) أخرجه مسلم (١٥٦٣).

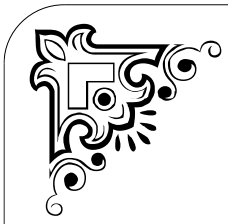

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: التَّدَاوُلُ بَيْنَ النَّاسِ

عِبَادَ اللهِ! «إِنَّ اللهَ يُدَاوِلُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، يَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا، عِبَرٌ يُمَحِّصُ اللهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ إِيمَانَهُمْ وَصِدْقَهُمْ، وَيَفْضَحُ اللهُ بِهَا الْمُنَافِقِينَ، وَيُمَحِّصُ اللهُ بِهَا ذُنُوبَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلِلهِ فِيهَا الْحِكَمُ الْعَظِيمَةُ.

فَالْإِنْسَانُ لَا يَقْنَطُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ مُصِيبَةٌ، أَوْ أَصَابَهُ الْمَرَضُ، أَوْ خَسِرَ فِي سِلْعَةٍ فِي مَالٍ، أَوْ أَصَابَتْهُ نَكْبَةٌ فِي أَيِّ شَيْءٍ، فَلَا يَجْزَعُ وَلَا يَقْنَطُ، بَلْ يُشَمِّرُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَيَسْأَلُ رَبَّهُ الْعَوْنَ وَالتَّوْفِيقَ، وَالْعِوَضَ عَمَّا أَصَابَهُ، وَلْيُشَمِّرْ إِلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلْيُبْشِرْ بِالْعَاقِبَةِ: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩].

فَاللهُ جَلَّ وَعَلَا وَعَدَ بِالْعَاقِبَةِ الْحَمِيدَةِ لِمَنْ صَبَرَ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]»[1].

فَمِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: سُنَّةُ التَّدَاوُلِ، يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

---

(١) «دروس للشيخ عبد العزيز بن باز» (٩/ ٩).

«﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾: الْمُشَارُ إِلَيْهِ هُنَا بَعِيدٌ؛ وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ قَرِيبٌ؛ لِأَنَّ الْأَيَّامَ هِيَ الزَّمَنُ، فَهِيَ قَرِيبَةٌ؛ لَكِنْ لَمَّا كَانَتِ الْأَيَّامُ مِنْهَا مَا هُوَ بَعِيدٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ قَرِيبٌ؛ غَلَّبَ جَانِبَ الْبُعْدِ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: نَجْعَلُهَا بَيْنَهُمْ دُوَلًا، فَمَرَّةً تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِهَؤُلَاءِ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ، وَمَرَّةً تَكُونُ الدَّوْلَةُ لِهَؤُلَاءِ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ؛ فَفِي (بَدْرٍ) كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، وَفِي (أُحُدٍ) كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً؛ لِحِكَمٍ عَظِيمَةٍ بَيَّنَهَا اللهُ ﷻ فِيمَا بَعْدُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَشْمَلُ مُدَاوَلَتَهَا بَيْنَ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ، وَيَشْمَلُ كَذَلِكَ مُدَاوَلَتَهَا فِي الْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ؛ فَالْإِنْسَانُ يَجِدُ يَوْمًا سُرُورًا، وَيَجِدُ يَوْمًا آخَرَ حُزْنًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ

فَالدُّنْيَا -هَكَذَا- لَا تَبْقَىٰ عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدَةٍ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ، فَالْأَيَّامُ دُوَلٌ»(١).

«فَيُدَاوِلُ اللهُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ، يَوْمٌ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَيَوْمٌ لِلطَّائِفَةِ الْأُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ الدُّنْيَا مُنْقَضِيَةٌ فَانِيَةٌ، وَهَذَا بِخِلَافِ الدَّارِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهَا خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا»(٢).

«﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قِيلَ: هَذَا فِي الْحَرْبِ، تَكُونُ مَرَّةً

---

(١) «تفسير ابن عثيمين: آل عمران» (٢/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ١٥٨-١٥٩).

لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِيَنْصُرَ اللهُ ﷻ دِينَهُ، وَمَرَّةً لِلْكَافِرِينَ إِذَا عَصَىٰ الْمُؤْمِنُونَ؛ لِيَبْتَلِيَهُمْ وَيُمَحِّصَ ذُنُوبَهُمْ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَعْصُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

وَقِيلَ: نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ؛ مِنْ فَرَحٍ وَغَمٍّ، وَصِحَّةٍ وَسَقَمٍ؛ وَغِنًىٰ وَفَقْرٍ، وَالدَّوْلَةُ: الْكَرَّةُ.

وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُدَاوَلَةُ لِيُرَىٰ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُنَافِقِ، فَيُمَيَّزُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»[1].

فَعَلَىٰ الْغَنِيِّ أَنْ يَشْكُرَ، وَعَلَىٰ الْفَقِيرِ أَنْ يَعْمَلَ وَيَكِدَّ وَيَجْتَهِدَ، وَيَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ، وَحَالُ الْمُؤْمِنِ فِي كِلَا الْأَمْرَيْنِ خَيْرٌ؛ حَيْثُ يَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**»[2]. (*).

❀❀❀

(١) «**تفسير القرطبي**» (٤/ ٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «التَّعْلِيقُ عَلَىٰ رِسَالَةِ الْوَسَائِلِ الْمُفِيدَةِ لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَةِ لِلْعَلَّامَةِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللهُ» - الأربعاء ٩ من المحرم ١٤٣٥هـ| ١٣-١١-٢٠١٣م.

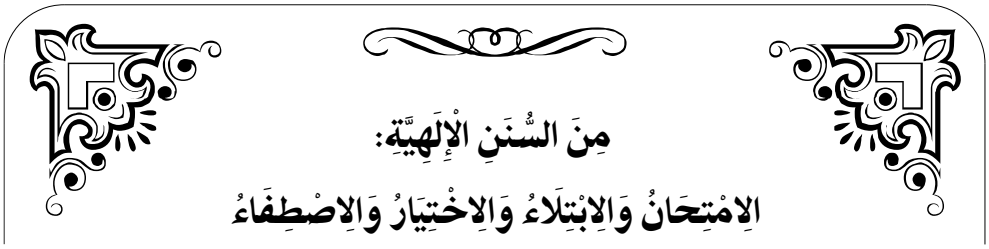

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ:
الِامْتِحَانُ وَالِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِيَارُ وَالِاصْطِفَاءُ

وَمِنْ هَذِهِ السُّنَنِ: الِامْتِحَانُ وَالِابْتِلَاءُ، وَالِاخْتِيَارُ وَالِاصْطِفَاءُ؛ فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَبْتَلِي النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ لِيَرَىٰ صَبْرَهُمْ، وَلِيَرَىٰ صِدْقَهُمْ، جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْفِتْنَةَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِ كَالنَّارِ بِالنِّسْبَةِ لِلذَّهَبِ، يَدْخُلُ الذَّهَبُ النَّارَ حَتَّىٰ يَخْرُجَ خَالِصًا مُخَلَّصًا مِنْ شَوَائِبِهِ وَمَا عَلِقَ بِهِ.

وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُ يَبْتَلِيهِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْفِتَنِ، وَيُدْخِلُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَارَ الْمِحَنِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْ شَوَائِبِهِ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِيرَ إِلَىٰ كَمَالِ الْعَقْلِ وَالصَّبْرِ حَتَّىٰ يَدْفَعَ فِتْنَةَ الشَّهْوَةِ، وَحَتَّىٰ يَصِيرَ إِلَىٰ كَمَالِ الْبَصِيرَةِ وَالْيَقِينِ حَتَّىٰ يَدْفَعَ فِتْنَةَ الشُّبْهَةِ.

فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَ هَذَا الْمَحَكَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صِدْقَ الْإِنْسَانِ وَصَبْرَهُ.(*).

يَقُولُ -سُبْحَانَهُ- فِي الْحَدِيثِ عَنْ سُنَّةِ الِابْتِلَاءِ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ)، الْجُمُعَةُ ٤ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦هـ| ٧-١٠-٢٠٠٥م.

أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣].

أَظَنَّ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ: آمَنَّا بِاللهِ، وَهُمْ لَا يُخْتَبَرُونَ وَيُمْتَحَنُونَ بِمَشَاقِّ التَّكَالِيفِ وَوَظَائِفِ الطَّاعَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْمَصَائِبِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ؟!!

كَلَّا.. لَنَخْتَبِرَنَّهُمْ؛ لِنُبَيِّنَ الْمُخْلِصَ مِنَ الْمُنَافِقِ، وَالصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالصَّابِرَ مِنَ الْجَزُوعِ.

وَنُؤَكِّدُ مُقْسِمِينَ أَنَّنَا اخْتَبَرْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ بِضُرُوبِ الْفِتَنِ وَأَنْوَاعِ الْمِحَنِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ نُشِرَ بِالْمِنْشَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، فَصَبَرُوا؛ فَمَا لَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ مِثْلَهُمْ؟!!

فَلَيُظْهِرَنَّ اللهُ الصَّادِقِينَ فِي الْإِيمَانِ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيهِ بِاخْتِبَارِهِمُ اخْتِبَارًا عَمَلِيًّا يَكْشِفُ صِدْقَ الصَّادِقِينَ وَكَذِبَ الْكَاذِبِينَ.(*).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

«هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ: لَا تَظُنُّوا، وَلَا يَخْطُرْ بِبَالِكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ مِنْ دُونِ مَشَقَّةٍ، وَاحْتِمَالِ الْمَكَارِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ أَعْلَىٰ الْمَطَالِبِ، وَأَفْضَلُ مَا بِهِ يَتَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ، وَكُلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ عَظُمَتْ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «التَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [العنكبوت: ١-٣].

وَسِيلَتُهُ وَالْعَمَلُ الْمُوَصِّلُ إِلَيْهِ، فَلَا يُوصَلُ إِلَىٰ الرَّاحَةِ إِلَّا بِتَرْكِ الرَّاحَةِ، وَلَا يُدْرَكُ النَّعِيمُ إِلَّا بِتَرْكِ النَّعِيمِ؛ وَلَكِنَّ مَكَارِهَ الدُّنْيَا الَّتِي تُصِيبُ الْعَبْدَ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ تَوْطِينِ النَّفْسِ لَهَا، وَتَمْرِينِهَا عَلَيْهَا، وَمَعْرِفَةِ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ تَنْقَلِبُ عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ مِنَحًا يُسَرُّونَ بِهَا وَلَا يُبَالُونَ بِهَا، وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»(١).

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

«أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبَادَهُ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَشَقَّةِ كَمَا فَعَلَ بِمَنْ قَبْلَهُمْ، فَهِيَ سُنَّتُهُ الْجَارِيَةُ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ؛ أَنَّ مَنْ قَامَ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُ، فَإِنْ صَبَرَ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ وَلَمْ يُبَالِ بِالْمَكَارِهِ الْوَاقِفَةِ فِي سَبِيلِهِ؛ فَهُوَ الصَّادِقُ الَّذِي قَدْ نَالَ مِنَ السَّعَادَةِ كَمَالَهَا، وَمِنَ السِّيَادَةِ آلَتَهَا.

وَمَنْ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ بِأَنْ صَدَّتْهُ الْمَكَارِهُ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ، وَثَنَتْهُ الْمِحَنُ عَنْ مَقْصِدِهِ؛ فَهُوَ الْكَاذِبُ فِي دَعْوَىٰ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَالتَّمَنِّي وَمُجَرَّدِ الدَّعَاوَىٰ حَتَّىٰ تُصَدِّقَهُ الْأَعْمَالُ أَوْ تُكَذِّبَهُ.

فَقَدْ جَرَىٰ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ مَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُمْ ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ أَيِ: الْفَقْرُ ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ أَيِ: الْأَمْرَاضُ فِي أَبْدَانِهِمْ، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ بِأَنْوَاعِ الْمَخَاوِفِ مِنَ التَّهْدِيدِ بِالْقَتْلِ، وَالنَّفْيِ، وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الْأَحِبَّةِ، وَأَنْوَاعِ الْمَضَارِّ؛ حَتَّىٰ وَصَلَتْ بِهِمُ

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ١٥٩).

الْحَالُ وَآلَ بِهِمُ الزِّلْزَالُ إِلَىٰ أَنِ اسْتَبْطَئُوا نَصْرَ اللهِ مَعَ يَقِينِهِمْ بِهِ؛ وَلَكِنْ لِشِدَّةِ الْأَمْرِ وَضِيقِهِ قَالَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ؟ فَلَمَّا كَانَ الْفَرَجُ عِنْدَ الشِّدَّةِ، وَكُلَّمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾، فَهَكَذَا كُلُّ مَنْ قَامَ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ يُمْتَحَنُ، فَكُلَّمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ وَصَعُبَتْ إِذَا صَابَرَ وَثَابَرَ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ؛ انْقَلَبَتِ الْمِحْنَةُ فِي حَقِّهِ مِنْحَةً، وَالْمَشَقَّاتُ رَاحَاتٍ، وَأَعْقَبَهُ ذَلِكَ الِانْتِصَارَ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَشِفَاءَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الدَّاءِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣]؛ فَعِنْدَ الِامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ»(١).

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ** -أَيِ: الْأَفْضَلُ- **فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ، فَإِذَا كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي ابْتِلَائِهِ**»(٢).

---

(١) «**تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ**» (ص: ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في «**الأدب المفرد**»: (ص١٣٤، رقم ٥١٠)، وابن ماجه: (٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٤)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٢٧٤-٢٧٥، رقم ١٤٤)، وله شاهد من رواية: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

يُبْتَلَىٰ الرَّجُلُ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُمَحِّصَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَخْرِجَ مِنْ قَلْبِهِ سَخِيمَتَهُ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَلَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ قَلْبِهِ مَا يَنْخَرُ فِيهِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ طَلَاحُهُ إِذَا مَا نَمَا فِيهِ وَزَكَا.

وَلَكِنْ يُزَكِّي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْقُلُوبَ بِأَمْثَالِ تِلْكَ الْخِصَالِ الطَّيِّبَةِ؛ لِيَكُونَ الْعَبْدُ عَلَىٰ الْمَحَكِّ دَائِمًا وَأَبَدًا.(*).

إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا يَبْتَلِي بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَبِالْغِنَىٰ وَالْفَقْرِ، وَبِالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَمَهْمَا كَانَ حَالُ الْعَبْدِ فِي حَالِ ابْتِلَاءٍ، وَهُوَ لَا يَنْفَكُّ عَنْ حَالِ الِابْتِلَاءِ أَبَدًا؛ «فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا مِنَ اللهِ، رَاجِيًا لَهُ، رَاغِبًا رَاهِبًا.

إِنْ نَظَرَ إِلَىٰ ذُنُوبِهِ، وَعَدْلِ اللهِ، وَشِدَّةِ عِقَابِهِ؛ خَشِيَ رَبَّهُ وَخَافَهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَىٰ فَضْلِهِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ، وَعَفْوِهِ الشَّامِلِ؛ رَجَا وَطَمِعَ.

إِنْ وُفِّقَ لِطَاعَةٍ رَجَا مِنْ رَبِّهِ تَمَامَ النِّعْمَةِ بِقَبُولِهَا، وَخَافَ مِنْ رَدِّهَا بِتَقْصِيرِهِ فِي حَقِّهَا، وَإِنِ ابْتُلِيَ بِمَعْصِيَتِهِ رَجَا مِنْ رَبِّهِ قَبُولَ تَوْبَتِهِ وَمَحْوَهَا، وَخَشِيَ بِسَبَبِ ضَعْفِ التَّوْبَةِ وَالِالْتِفَاتِ لِلذَّنْبِ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَيْهَا.

وَعِنْدَ النِّعَمِ وَالْيَسَارِ يَرْجُو اللهَ دَوَامَهَا وَالزِّيَادَةَ مِنْهَا، وَالتَّوْفِيقَ لِشُكْرِهَا، وَيَخْشَىٰ بِإِخْلَالِهِ بِالشُّكْرِ مِنْ سَلْبِهَا.

وَعِنْدَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ يَرْجُو اللهَ دَفْعَهَا، وَيَنْتَظِرُ الْفَرَجَ بِحَلِّهَا، وَيَرْجُو -أَيْضًا- أَنْ يُثِيبَهُ اللهُ عَلَيْهَا حِينَ يَقُومُ بِوَظِيفَةِ الصَّبْرِ، وَيَخْشَىٰ مِنِ اجْتِمَاعِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ» (الْمُحَاضَرَةُ الرَّابِعَةُ: دَوْرُ الِابْتِلَاءِ فِي تَرْبِيَةِ النُّفُوسِ» - السَّبْتُ ٥ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٢٦هـ| ٨-١٠-٢٠٠٥م.

الْمُصِيبَتَيْنِ؛ فَوَاتِ الْأَجْرِ الْمَحْبُوبِ، وَحُصُولِ الْأَمْرِ الْمَكْرُوهِ إِذَا لَمْ يُوَفَّقْ لِلْقِيَامِ بِالصَّبْرِ الْوَاجِبِ»(١). (*).

أَمَّا الِاصْطِفَاءُ؛ فَاللهُ ﷻ أَعْلَمُ بِمَنْ يَصْطَفِي، وَلِمَ يَصْطَفِي، وَمَتَى يَصْطَفِي؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

«﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فِيمَنْ عَلِمَهُ يَصْلُحُ لَهَا، وَيَقُومُ بِأَعْبَائِهَا، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، وَمُتَبَرِّئٌ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ دَنِيءٍ، أَعْطَاهُ اللهُ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ أَصْلًا وَتَبَعًا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَضَعْ أَفْضَلَ مَوَاهِبِهِ عِنْدَ مَنْ لَا يَسْتَأْهِلُهُ وَلَا يَزْكُو عِنْدَهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَمَالِ حِكْمَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ-؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ -تَعَالَىٰ- رَحِيمًا وَاسِعَ الْجُودِ، كَثِيرَ الْإِحْسَانِ؛ فَإِنَّهُ حَكِيمٌ لَا يَضَعُ جُودَهُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِهِ»(٣).

وَيَقُولُ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥].

«بَيَّنَ -تعالىٰ- حَالَةَ الرُّسُلِ، وَتَمَيُّزَهُمْ عَنِ الْخَلْقِ بِمَا تَمَيَّزُوا بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ، فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ أَيْ: يَخْتَارُ وَيَجْتَبِي

---

(١) «**القول السديد شرح كتاب التوحيد**» ضمن مجموع مؤلفات عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي: باب قوله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾، (٦/ ٦٨٧)، بتصرف يسير.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ٢٧ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٦هـ| ١٩-١٢-٢٠١٤م.

(٣) «**تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ**» (ص: ٣٠٤).

مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ رُسُلًا يَكُونُونَ أَزْكَىٰ ذَلِكَ النَّوْعِ وَأَجْمَعَهُ لِصِفَاتِ الْمَجْدِ، وَأَحَقَّهُ بِالِاصْطِفَاءِ، فَالرُّسُلُ لَا يَكُونُونَ إِلَّا صَفْوَةَ الْخَلْقِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَالَّذِي اخْتَارَهُمْ وَاصْطَفَاهُمْ لَيْسَ جَاهِلًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، أَوْ يَعْلَمُ شَيْئًا دُونَ شَيْءٍ، وَإِنَّ الْمُصْطَفِيَ لَهُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الَّذِي قَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؛ فَاخْتِيَارُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ عِلْمٍ مِنْهُ أَنَّهُمْ أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَصْلُحُ فِيهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]»(١).

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ مَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَأَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا مُخْلِصِينَ، وَرِجَالًا صَادِقِينَ قَدْ تَكَفَّلَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ بِهِدَايَتِهِمْ، وَوَعَدَ بِالْإِتْيَانِ بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ الْخَلْقِ أَوْصَافًا، وَأَقْوَاهُمْ نُفُوسًا، وَأَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا، أَجَلُّ صِفَاتِهِمْ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ لِلْعَبْدِ هِيَ أَجَلُّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ، وَأَفْضَلُ فَضِيلَةٍ تَفَضَّلَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا يَسَّرَ لَهُ الْأَسْبَابَ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ كُلَّ عَسِيرٍ، وَوَفَّقَهُ لِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ إِلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْوِدَادِ.

وَمِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ: أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّصِفَ بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٢٥٩).

كَمَا أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ اللهِ لِلْعَبْدِ: أَنْ يُكْثِرَ الْعَبْدُ مِنَ التَّقَرُّبِ إِلَىٰ اللهِ بِالْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ اللهِ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(١).

وَمِنْ لَوَازِمِ مَحَبَّةِ اللهِ: مَعْرِفَتُهُ -تَعَالَىٰ-، وَالْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّ الْمَحَبَّةَ بِدُونِ مَعْرِفَةٍ بِاللهِ نَاقِصَةٌ جِدًّا؛ بَلْ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ وَإِنْ وُجِدَتْ دَعْوَاهَا، وَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا قَبِلَ مِنْهُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ، وَغَفَرَ لَهُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ»(٢).

وَيَقُولُ ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

«وَقَالُوا مُقْتَرِحِينَ عَلَىٰ اللهِ بِعُقُولِهِمِ الْفَاسِدَةِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ أَيْ: مُعَظَّمٌ عِنْدَهُمْ، مُبَجَّلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، أَوْ أَهْلِ الطَّائِفِ؛ كَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَنَحْوِهِ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُمْ عَظِيمٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٦٣٩).

قَالَ اللهُ رَدًّا لِاقْتِرَاحِهِمْ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أَيْ: أَهُمُ الْخُزَّانُ لِرَحْمَةِ اللهِ، وَبِيَدِهِمْ تَدْبِيرُهَا، فَيُعْطُونَ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ مَنْ يَشَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَهَا مِمَّنْ يَشَاءُونَ؟!!

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أَيْ: فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْحَالُ أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنَ الدُّنْيَا.

فَإِذَا كَانَتْ مَعَايِشُ الْعِبَادِ وَأَرْزَاقُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ بِيَدِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَهُوَ الَّذِي يُقَسِّمُهَا بَيْنَ عِبَادِهِ، فَيَبْسُطُ الرِّزْقَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ؛ فَرَحْمَتُهُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي أَعْلَاهَا النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ أَنْ تَكُونَ بِيَدِ اللهِ -تَعَالَىٰ-؛ فَاللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.

فَعُلِمَ أَنَّ اقْتِرَاحَهُمْ سَاقِطٌ لَاغٍ، وَأَنَّ التَّدْبِيرَ لِلْأُمُورِ كُلِّهَا دِينِيِّهَا وَدُنْيَوِيِّهَا بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ، هَذَا إِقْنَاعٌ لَهُمْ مِنْ جِهَةِ غَلَطِهِمْ فِي الِاقْتِرَاحِ الَّذِي لَيْسَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْهُ شَيْءٌ، إِنْ هُوَ إِلَّا ظُلْمٌ مِنْهُمْ وَرَدٌّ لِلْحَقِّ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾: لَوْ عَرَفُوا حَقَائِقَ الرِّجَالِ، وَالصِّفَاتِ الَّتِي بِهَا يُعْرَفُ عُلُوُّ قَدْرِ الرَّجُلِ، وَعِظَمُ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ؛ لَعَلِمُوا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ هُوَ أَعْظَمُ الرِّجَالِ قَدْرًا، وَأَعْلَاهُمْ فَخْرًا، وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلًا، وَأَغْزَرُهُمْ عِلْمًا، وَأَجَلُّهُمْ رَأْيًا وَعَزْمًا وَحَزْمًا، وَأَكْمَلُهُمْ خُلُقًا، وَأَوْسَعُهُمْ رَحْمَةً، وَأَشَدُّهُمْ شَفَقَةً، وَأَهْدَاهُمْ وَأَتْقَاهُمْ.

وَهُوَ قُطْبُ دَائِرَةِ الْكَمَالِ، وَإِلَيْهِ الْمُنْتَهَىٰ فِي أَوْصَافِ الرِّجَالِ، أَلَا وَهُوَ رَجُلُ الْعَالَمِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، يَعْرِفُ ذَلِكَ أَوْلِيَاؤُهُ وَأَعْدَاؤُهُ؛ فَكَيْفَ يُفَضِّلُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ مَنْ لَمْ يَشُمَّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كَمَالِهِ؟! وَمِنْ جُرْمِهِ وَمُنْتَهَىٰ حُمْقِهِ: أَنْ جَعَلَ إِلَهَهُ الَّذِي يَعْبُدُهُ وَيَدْعُوهُ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ صَنَمًا، أَوْ شَجَرًا، أَوْ حَجَرًا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ، يَحْتَاجُ لِمَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِ؛ فَهَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ فِعْلِ السُّفَهَاءِ وَالْمَجَانِينِ؟!!

فَكَيْفَ يُجْعَلُ مِثْلُ هَذَا عَظِيمًا؟!! أَمْ كَيْفَ يُفَضَّلُ عَلَىٰ خَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ ﷺ؟ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَعْقِلُونَ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: تَنْبِيهٌ عَلَىٰ حِكْمَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ- فِي تَفْضِيلِ اللهِ بَعْضَ الْعِبَادِ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا؛ ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أَيْ: لِيُسَخِّرَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْأَعْمَالِ وَالْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ.

فَلَوْ تَسَاوَىٰ النَّاسُ فِي الْغِنَىٰ، وَلَمْ يَحْتَجْ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ؛ لَتَعَطَّلَتْ كَثِيرٌ مِنْ مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ.

وَفِيهَا: دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ نِعْمَتَهُ الدِّينِيَّةَ خَيْرٌ مِنَ النِّعْمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾»[1].

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٩٠١-٩٠٢).

وَيَقُولُ فِي قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام مُتَحَدِّثًا عَنْ رِحْلَتِهِ مَعَ فَتَاهُ لِلِقَاءِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

«وَجَدَ مُوسَىٰ عليه السلام وَفَتَاهُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا، وَهُوَ الْخَضِرُ، وَكَانَ عَبْدًا صَالِحًا، لَا نَبِيًّا -عَلَىٰ الصَّحِيحِ-.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أَيْ: أَعْطَاهُ اللهُ رَحْمَةً خَاصَّةً بِهَا زَادَ عِلْمُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أَيْ: مِنْ عِنْدِنَا عِلْمًا، وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُعْطَ مُوسَىٰ، وَإِنْ كَانَ مُوسَىٰ عليه السلام أَعْلَمَ مِنْهُ بِأَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ؛ وَخُصُوصًا فِي الْعُلُومِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأُصُولِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ اللهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْخَلْقِ بِالْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ»(١).

فَلَا تُحَارِبْ أَحَدًا فِي شَيْءٍ مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ؛ فَلَنْ تُوقِفَهُ، وَلَنْ يُوقِفَكَ أَحَدٌ عَنْ أَمْرٍ أَرَادَهُ اللهُ لَكَ، وَلَنْ يَحُولَ أَحَدٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَيْرٍ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَسُوقَهُ إِلَيْكَ؛ حَيْثُ يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

«ذَكَرَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا انْفِرَادَهُ بِالتَّدْبِيرِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، فَقَالَ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾: فَهَذَا يُوجِبُ التَّعَلُّقَ بِاللهِ -تَعَالَىٰ-، وَالِافْتِقَارَ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَأَلَّا يُدْعَىٰ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُخَافَ

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٥٦٠).

وَيُرْجَىٰ إِلَّا هُوَ، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الَّذِي قَهَرَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، وَيُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا»(١).

وَيَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**».

وَفِي رِوَايَةٍ: «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»(٢). (*).

❀❀❀

(١) «**تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ**» (ص: ٨٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود: (٤/ ٢٢٥، رقم ٤٦٩٩)، وابن ماجه: (١/ ٢٩ - ٣٠، رقم ٧٧)، من حديث: أُبَيِّ بْنَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والحديث صحح إسناده الألباني في هامش «**المشكاة**»: (١/ ٤١، رقم ١١٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ» (الْحَدِيثُ التَّاسِعَ عَشَرَ) - الْأَرْبِعَاءُ ٢٣ مِنَ الْمُحَرَّمِ ١٤٣٥هـ| ٢٧-١١-٢٠١٣م.

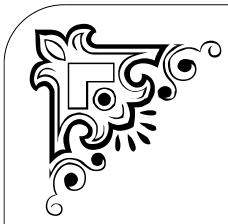

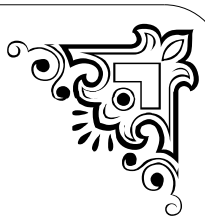

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ:
إِجْرَاءُ الْمُسَبَّبَاتِ عَلَى الْأَسْبَابِ

وَمِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: إِجْرَاءُ الْمُسَبَّبَاتِ عَلَى الْأَسْبَابِ؛ فَمَنْ يَزْرَعْ يَحْصُدْ، وَمَنْ يَجْتَهِدْ يَنْجَحْ، حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف: ٣٠].

«﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَيْ: أَيْ: جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾: وَإِحْسَانُ الْعَمَلِ: أَنْ يُرِيدَ الْعَبْدُ الْعَمَلَ لِوَجْهِ اللهِ، مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ شَرْعَ اللهِ، فَهَذَا الْعَمَلُ لَا يُضَيِّعُهُ اللهُ، وَلَا شَيْئًا مِنْهُ، بَلْ يَحْفَظُهُ لِلْعَامِلِينَ، وَيُوَفِّيهِمْ مِنَ الْأَجْرِ بِحَسَبِ عَمَلِهِمْ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَذَكَرَ أَجْرَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ [الكهف: ٣١]»[1].

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٥٥٣).

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ:
أَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى سَبِيلُ نُزُولِ الْأَرْزَاقِ وَالْبَرَكَاتِ

إِنَّ آثَارَ الِاسْتِقَامَةِ عَلَى وَاقِعِ النَّاسِ وَمَعَايِشِهِمْ أَنَّهَا سَبَبُ نُزُولِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ؛ فَتَصْلُحُ أَحْوَالُ الْأُمَّةِ بِصَلَاحِ أَمْرِ دِينِهَا، وَيَفُوتُهَا مِنْ صَلَاحِ أَحْوَالِهَا بِقَدْرِ مَا فَاتَهَا مِنْ صَلَاحِ أُمُورِ دِينِهَا، بَيَانُ ذَلِكَ: قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ صَدَّقُوا رُسُلَهُمْ، وَاتَّبَعُوهُمْ، وَاجْتَنَبُوا مَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ؛ لَفَتَحَ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ الْخَيْرِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ وَلَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ الْمُهْلِكِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ»(١).

«ذَكَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ لَوْ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ إِيمَانًا صَادِقًا صَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَاسْتَعْمَلُوا تَقْوَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِتَرْكِ جَمِيعِ مَا حَرَّمَ اللهُ؛ لَفَتَحَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ مَا بِهِ يَعِيشُونَ وَتَعِيشُ بَهَائِمُهُمْ فِي أَخْصَبِ عَيْشٍ وَأَغْزَرِ رِزْقٍ، مِنْ

(١) «التفسير الميسر» (ص: ١٦٣).

غَيْرِ عَنَاءٍ وَلَا تَعَبٍ، وَلَا كَدٍّ وَلَا نَصَبٍ.

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّقُوا، فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ بِالْعُقُوبَاتِ وَالْبَلَايَا، وَنَزْعِ الْبَرَكَاتِ، وَكَثْرَةِ الْآفَاتِ، وَهِيَ بَعْضُ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ؛ وَإِلَّا فَلَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ مَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾»[1].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣].

«فَكُلُّ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ -تَعَالَىٰ-، وَلَازَمَ مَرْضَاتَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يُثِيبُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَمِنْ جُمْلَةِ ثَوَابِهِ: أَنْ يَجْعَلَ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مَنْ كُلِّ شِدَّةٍ وَمَشَقَّةٍ، وَكَمَا أَنَّ مَنِ اتَّقَىٰ اللهَ جَعَلَ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ فَمَنْ لَمْ يَتَّقِ اللهَ يَقَعْ فِي الْآصَارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ التَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَالْخُرُوجِ مِنْ تَبِعَتِهَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ أَيْ: يَسُوقُ اللهُ الرِّزْقَ لِلْمُتَّقِي مِنْ وَجْهٍ لَا يَحْتَسِبُهُ وَلَا يَشْعُرُ بِهِ.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فِي أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ بِأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَىٰ اللهِ فِي جَلْبِ مَا

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٣٣٦).

يَنْفَعُهُ، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ، وَيَثِقْ بِهِ فِي تَسْهِيلِ ذَلِكَ ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أَيْ: كَافِيهِ الْأَمْرَ الَّذِي تَوَكَّلَ عَلَيْهِ فِيهِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي كَفَالَةِ الْغَنِيِّ الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ؛ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَلَكِنْ رُبَّمَا أَنَّ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ اقْتَضَتْ تَأْخِيرَهُ إِلَىٰ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لَهُ»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

«﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أَيِ: اتْرُكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ مِنْهَا، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾: كَثِيرَ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، فَرَغَّبَهُمْ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ حُصُولِ الثَّوَابِ، وَانْدِفَاعِ الْعِقَابِ.

وَرَغَّبَهُمْ -أَيْضًا- بِخَيْرِ الدُّنْيَا الْعَاجِلِ، فَقَالَ: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ أَيْ: مَطَرًا مُتَتَابِعًا يَرْوِي الشِّعَابَ وَالْوِهَادَ، وَيُحْيِي الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ أَيْ: يُكْثِرْ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي تُدْرِكُونَ بِهَا مَا تَطْلُبُونَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَوْلَادَكُمْ.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾: وَهَذَا مِنْ أَبْلَغِ مَا يَكُونُ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا وَمَطَالِبِهَا»(٢).

❀❀❀

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ١٠٢٦).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ١٠٤٨-١٠٤٩).

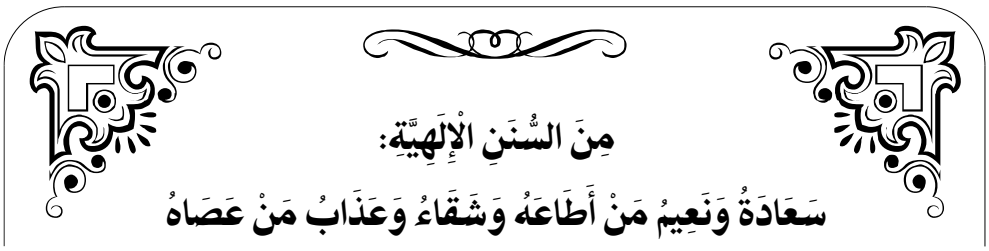

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ:
سَعَادَةُ وَنَعِيمُ مَنْ أَطَاعَهُ وَشَقَاءُ وَعَذَابُ مَنْ عَصَاهُ

وَمِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: أَنَّ مَنِ اتَّبَعَ هُدَى اللهِ، وَسَارَ فِي طَرِيقِ رِضَاهُ؛ أَكْرَمَهُ -سُبْحَانَهُ- بِطِيبِ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا، وَبِالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا اقْتَضَتْ سُنَّةُ اللهِ -تَعَالَى- فِي الْمُعْرِضِ عَنْ هُدَاهُ عِقَابَهُ بِالْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

«فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ مِنْكُمْ بِأَنْ آمَنَ بِرُسُلِي وَكُتُبِي، وَاهْتَدَىٰ بِهِمْ، وَذَلِكَ بِتَصْدِيقِ جَمِيعِ أَخْبَارِ الرُّسُلِ وَالْكُتُبِ، وَالِامْتِثَالِ لِلْأَمْرِ، وَالِاجْتِنَابِ لِلنَّهْيِ؛ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

فَرَتَّبَ عَلَىٰ اتِّبَاعِ هُدَاهُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ:

نَفْيُ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: أَنَّ الْمَكْرُوهَ إِنْ كَانَ قَدْ مَضَىٰ أَحْدَثَ الْحُزْنَ، وَإِنْ كَانَ مُنْتَظَرًا أَحْدَثَ الْخَوْفَ، فَنَفَاهُمَا عَمَّنِ اتَّبَعَ هُدَاهُ، وَإِذَا انْتَفَيَا حَصَلَ ضِدُّهُمَا، وَهُوَ الْأَمْنُ التَّامُّ.

وَكَذَلِكَ نَفْيُ الضَّلَالِ وَالشَّقَاءِ عَمَّنِ اتَّبَعَ هُدَاهُ، وَإِذَا انْتَفَيَا ثَبَتَ ضِدُّهُمَا، وَهُوَ الْهُدَىٰ وَالسَّعَادَةُ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاهُ حَصَلَ لَهُ الْأَمْنُ وَالسَّعَادَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ وَالْهُدَىٰ، وَانْتَفَىٰ عَنْهُ كُلُّ مَكْرُوهٍ؛ مِنَ الْخَوْفِ، وَالْحُزْنِ، وَالضَّلَالِ، وَالشَّقَاءِ، فَحَصَلَ لَهُ الْمَرْغُوبُ، وَانْدَفَعَ عَنْهُ الْمَرْهُوبُ، وَهَذَا عَكْسُ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ هُدَاهُ، فَكَفَرَ بِهِ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ»(١).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

«﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: وَذَلِكَ بِطُمَأْنِينَةِ قَلْبِهِ، وَسُكُونِ نَفْسِهِ، وَعَدَمِ الْتِفَاتِهِ لِمَا يُشَوِّشُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، وَيَرْزُقُهُ اللهُ رِزْقًا حَلَالًا طَيِّبًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ مِنْ أَصْنَافِ اللَّذَّاتِ؛ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ، فَيُؤْتِيهِ اللهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً»(٢).

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

---

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٤٠).

(٢) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٥٢١).

﴿مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ أَمَرَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ أَنْ يَهْبِطَا إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَأَنْ يَتَّخِذُوا -آدَمُ وَبَنُوهُ- الشَّيْطَانَ عَدُوًّا لَهُمْ، فَيَأْخُذُوا الْحَذَرَ مِنْهُ، وَيَعُدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ وَيُحَارِبُوهُ، وَأَنَّهُ سَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ كُتُبًا، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يُبَيِّنُونَ لَهُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ جَنَّتِهِ، وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ، وَأَنَّهُمْ أَيَّ وَقْتٍ جَاءَهُمْ ذَلِكَ الْهُدَىٰ الَّذِي هُوَ الْكُتُبُ وَالرُّسُلُ، فَإِنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ؛ اتَّبَعَ مَا أُمِرَ بِهِ، وَاجْتَنَبَ مَا نُهِيَ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلَا يَشْقَىٰ فِيهِمَا، بَلْ قَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَهُ السَّعَادَةُ وَالْأَمْنُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ نَفَىٰ عَنْهُ الْخَوْفَ وَالْحُزْنَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

وَاتِّبَاعُ الْهُدَىٰ بِتَصْدِيقِ الْخَبَرِ، وَعَدَمِ مُعَارَضَتِهِ بِالشُّبَهِ، وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ بِأَلَّا يُعَارِضَهُ بِشَهْوَةٍ.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أَيْ: كِتَابِي الَّذِي يُتَذَكَّرُ بِهِ جَمِيعُ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَأَنْ يَتْرُكَهُ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، أَوْ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِنْكَارِ لَهُ وَالْكُفْرِ بِهِ؛ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أَيْ: فَإِنَّ جَزَاءَهُ أَنْ نَجْعَلَ مَعِيشَتَهُ ضَيِّقَةً مَشَقَّةً، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا عَذَابًا، وَفُسِّرَتِ الْمَعِيشَةُ الضَّنْكُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَنَّهُ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، وَيُحْصَرُ فِيهِ وَيُعَذَّبُ؛ جَزَاءً لِإِعْرَاضِهِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، وَهَذِهِ إِحْدَىٰ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] الْآيَةَ،

وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وَالرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] الْآيَةَ.

وَالَّذِي أَوْجَبَ لِمَنْ فَسَّرَهَا بِعَذَابِ الْقَبْرِ فَقَطْ مِنَ السَّلَفِ، وَقَصَرُوهَا عَلَىٰ ذَلِكَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- آخِرُ الْآيَةِ، وَأَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي آخِرِهَا عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَرَىٰ أَنَّ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ عَامَّةٌ فِي دَارِ الدُّنْيَا -بِمَا يُصِيبُ الْمُعْرِضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ وَالْآلَامِ الَّتِي هِيَ عَذَابٌ مُعَجَّلٌ-، وَفِي دَارِ الْبَرْزَخِ، وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ؛ لِإِطْلَاقِ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ، وَعَدَمِ تَقْيِيدِهَا، ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ أَيْ: هَذَا الْمُعْرِضَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ الْبَصَرِ عَلَىٰ الصَّحِيحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قَالَ عَلَىٰ وَجْهِ الذُّلِّ وَالْمُرَاجَعَةِ وَالتَّأَلُّمِ وَالضَّجَرِ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ فِي دَارِ الدُّنْيَا ﴿بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؛ فَمَا الَّذِي صَيَّرَنِي إِلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ الْبَشِعَةِ؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بِإِعْرَاضِكَ عَنْهَا ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أَيْ: تُتْرَكُ فِي الْعَذَابِ، فَأُجِيبَ بِأَنَّ هَذَا هُوَ عَيْنُ عَمَلِكَ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا عَمِيتَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّكَ، وَعَشِيتَ عَنْهُ، وَنَسِيتَهُ وَنَسِيتَ حَظَّكَ مِنْهُ؛ أَعْمَىٰ اللهُ بَصَرَكَ فِي الْآخِرَةِ، فَحُشِرْتَ إِلَىٰ النَّارِ أَعْمَىٰ أَصَمَّ أَبْكَمَ، وَأَعْرَضَ عَنْكَ، وَنَسِيَكَ فِي الْعَذَابِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: هَذَا الْجَزَاءُ ﴿نَجْزِي﴾ بِهِ ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ بِأَنْ تَعَدَّىٰ الْحُدُودَ، وَارْتَكَبَ الْمَحَارِمَ، وَجَاوَزَ مَا أُذِنَ لَهُ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ جَمِيعِ مَطَالِبِ الْإِيمَانِ دَلَالَةً وَاضِحَةً صَرِيحَةً؛ فَاللهُ لَمْ يَظْلِمْهُ، وَلَمْ يَضَعِ الْعُقُوبَةَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا، وَإِنَّمَا السَّبَبُ إِسْرَافُهُ، وَعَدَمُ إِيمَانِهِ.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴿وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ لِكَوْنِهِ لَا يَنْقَطِعُ، بِخِلَافِ عَذَابِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ مُنْقَطِعٌ، فَالْوَاجِبُ الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»(١).

❀❀❀

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» (ص: ٦٠٠-٦٠١).

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ:
أَنَّ التَّمْكِينَ وَالِاسْتِخْلَافَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

إِنَّ مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِالَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ أَنَّ التَّمْكِينَ وَالِاسْتِخْلَافَ فِي الْأَرْضِ يَكُونَانِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ.. لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

«هَذَا مِنْ أَوْعَادِهِ الصَّادِقَةِ الَّتِي شُوهِدَ تَأْوِيلُهَا وَمَخْبَرُهَا؛ فَإِنَّهُ وَعَدَ مَنْ قَامَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَسْتَخْلِفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، يَكُونُونَ هُمُ الْخُلَفَاءَ فِيهَا، الْمُتَصَرِّفِينَ فِي تَدْبِيرِهَا، وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي فَاقَ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا، ارْتَضَاهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهَا، بِأَنْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِقَامَتِهِ، وَإِقَامَةِ شَرَائِعِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ؛ لِكَوْنِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَسَائِرِ الْكُفَّارِ مَغْلُوبِينَ ذَلِيلِينَ.

وَأَنَّهُ يُبَدِّلُهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمُ الَّذِي كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِظْهَارِ

دِينِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا بِأَذَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْكُفَّارِ، وَكَوْنِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ قَلِيلِينَ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَقَدْ رَمَاهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَبَغَوْا لَهُمُ الْغَوَائِلَ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ هَذِهِ الْأُمُورَ وَقْتَ نُزُولِ الْآيَةِ، وَهِيَ لَمْ تُشَاهَدْ: الِاسْتِخْلَافَ فِي الْأَرْضِ وَالتَّمْكِينَ فِيهَا، وَالتَّمْكِينَ مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْأَمْنَ التَّامَّ؛ بِحَيْثُ يَعْبُدُونَ اللهَ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَلَا يَخَافُونَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ.

فَقَامَ صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِمَا يَفُوقُونَ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، فَمَكَّنَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَفُتِحَتْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَحَصَلَ الْأَمْنُ التَّامُّ وَالتَّمْكِينُ التَّامُّ، فَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَجِيبَةِ الْبَاهِرَةِ، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، مَهْمَا قَامُوا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ مَا وَعَدَهُمُ اللهُ، وَإِنَّمَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُدِيلُهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ بِسَبَبِ إِخْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ»[1].

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ»: (ص: ٦٧٠).

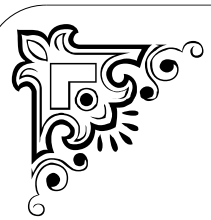

الفِهْرِسُ

الْمُقَدِّمَةُ ٣

السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَغْيِيرَ ٤

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ٥

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: التَّدَاوُلُ بَيْنَ النَّاسِ ٩

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: الِامْتِحَانُ وَالِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِيَارُ وَالِاصْطِفَاءُ ١٢

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: إِجْرَاءُ الْمُسَبَّبَاتِ عَلَىٰ الْأَسْبَابِ ٢٤

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: أَنَّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَىٰ سَبِيلُ نُزُولِ الْأَرْزَاقِ وَالْبَرَكَاتِ ٢٥

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: سَعَادَةُ وَنَعِيمُ مَنْ أَطَاعَهُ وَشَقَاءُ وَعَذَابُ مَنْ عَصَاهُ..... ٢٨

مِنَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ: أَنَّ التَّمْكِينَ وَالِاسْتِخْلَافَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ٣٣

الْفِهْرِسُ ٣٥